قِصَصٌ عَرَبِيَّة

جَابِرُ العَثَرَاتِ

قصص عربية

جابر العثرات

٤

تأليف

محمد أبو الفضل ابراهيم　　عبد المجيد قطامش

يطلب من :
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي "الفجالة"
سعيد جوده السحار وشركاه

دار مصر للطباعة
٣٧ شارع كامل صدقي "الفجالة"

بسم الله الرحمن الرحيم

مقــدمة

هذه سلسلة من القصص العربية ، اخترناها مما زخرت به كتب الأَدب والتاريخ ؛ من أَخبار العرب وأَيامهم ، وما وقع فى قصورهم وخيامهم ، وما تناقلته الأَلسنة فى مجالسهم وأَسمارهم. ثم صغناها فى أُسلوب سهل ، قريب من الفطرة ، بعيد عن الابتذال والغموض .

وإنا لنرجو أَن يحتذى أَبناؤنا العرب ما تضمنته هذه القصص ؛ من مثل أَخلاقية رفيعة ؛ كالوفاءِ بالوعد ، والعدل ، والكرم ، والشجاعة ، وحماية المستجير ، وإغاثة الملهوف . .

كما نرجو أَن تدعوهم هذه القصص إلى القراءَة ؛ بما فيها من حوادث شائقة ، وسرد جذاب ، وحوار ممتع .

ولعل أَهم ما نرجوه من وراءِ هذه القصص العربية أَن نعرض على أَبنائنا صورا من تاريخنا الحافل ، ومثلا من ماضينا المجيد ، ذلك أَن الأُمة العربية تجتاز الآن عصرا من أَزهى عصورها ، عصر بعث عربى ، ووعى عربى . ومن واجبنا أَن نتدارس هذا التاريخ ، ونعتنق هذه المثل ، ونسير فى نهضتنا على هدى من عروبتنا الأَصيلة .

المؤلفان

جابر العثرات

١

عاش « خُزَيْمَةُ بنُ بِشْرٍ » فى بَغْدَادَ زَمانًا ؛ رفيعَ المكانةِ عظيمَ المنزلةِ . وكان رَجُلًا كريمًا جَوادًا ، عَمَّ جُودُهُ إخوانَه، وأَصدقاءَهُ ، وغَمرَ عَطاؤُهُ كلَّ مُحْتاجٍ من جيرتِه ومعارفِه ، وكان لا يَقصِدُهُ أَحدٌ فى حاجةٍ إلَّا قضاها ، ولا يطلُبُ منه قاصِدٌ مالًا إلَّا بذله له راضِيًا .

وظلَّ خُزَيْمَةُ على هذه الحالِ ؛ إلى أَن نفِدَ مالُهُ ، وساءَتْ حالُهُ ؛ واضطُرَّ إلى مُساعدةِ إخوانِه وأَصدِقائِه الذين طالما ساعدَهُم بماله وجاهِه ، وشكا إليْهِمْ حاله ؛ فوجد عِندَهم مَعُونَةً وبِرًّا .

ولكنَّ تِلك المعونَةَ لم تدُمْ طويلا فقد أَخذَ إخوانُه يملُّونَه ، ويَقْبِضُونَ أَيدِيَهُمْ عنه .

وكان خُزيمةُ رجلًا عزيزَ النَّفْسِ ، رَقيقَ الْحِسِّ ، فلما رأَى من إخوانه ما رأَى ؛ أَصابَه هَمٌّ شديدٌ وقال لِزَوْجته :

– يا ابنةَ العمِّ ؛ قد رأَيتُ من إخوانى تغَيُّرًا وتنكُّرًا أَحزننى وآلَمَنِى ، وقد عزمتُ على لُزُومِ بيتى حتى يأْتيَنى الموْتُ ، أَو يُفَرِّجَ اللهُ من أَمرى .

ثم أَغلقَ عليْه بابَه ، وأَقامَ مع زوجتِه وأَولادِه ، يعيشون على ما بقِى عِندهم من طعامٍ ومالٍ .

* * *

وكان « عِكْرِمَةُ الْفَيَّاضُ » والِيًا على الجزيرةِ فى ذلك الحين .

وجلس ذاتَ يومٍ مع جماعةٍ من أَصحابِه يُدِيرون الكلامَ فى مُخْتَلِفِ الشُّئون ، وتَطَرَّقَ بهِمُ الحديثُ إلى ذِكرِ خُزيمَةَ ابن بِشْرٍ . فسأَل عِكرِمةُ عن حالِه ، فأَجابَهُ أَحدُ الحاضرين بأَنه قد تغيَّرَ له وجهُ الزمانِ ، وجفاهُ الإخوانُ ؛ فلزِمَ منزِلَهُ ، وأَغلق عليه دارَهُ ، وكاد ينساهُ الناس .

فدَهِشَ عِكْرِمَةُ لِهذا الخبرِ ، وأَسِف لِما آل إليه أَمرُ خُزَيمَةَ ، وهو الكريمُ الجوادُ ، الذى طالما واسَى الناسَ بمالِه ، وأَغدَق عليهِمْ بعطائِه .

وعاد إلى منزلِه وقد دبَّر أَمرًا ، وعزم على شىءٍ . فلما أَتى المَساءُ وانتصف الليلُ ، عدَّ أَربعةَ آلافِ دِرْهَمٍ من مالِه ، ووضعها فى كيسٍ وأَمر خدمَهُ فأَعدُّوا له السَّرْجَ على ظهرِ دابَّتِه . ثم ركِب ، وأَخذ معه غُلامًا من غِلْمَانه يحملُ له الكيس .

وكان خُروجُهُ من منزلِه سِرًّا ، لم يعلم به أَحدٌ ، حتى زوجتُه وأَولادُهُ ، وسار عِكرِمَةُ وسطَ الظلامِ ، حتى وقف ببابِ خُزيمةَ ، فنزل عن دابتِه ، وطرقَ البابَ ؛ فلما خرج إليه خُزيمةُ ، ناولَه الكيس وقال له :

– أَصلِحْ بهذا المالِ أَحوالَكَ .

فتناول خُزيمةُ الكيسَ ؛ فإذا هو كيسٌ ثقيلٌ قد مُلِئَ بالدراهمِ ، فوضعه على الأَرضِ وأَمسك بلِجام دابةِ عِكرِمةَ وسأَله :

– مَنْ أَنت ؟ جعلنى اللهُ فداءَك !

فأَجابَه عِكرِمةُ :

– ما جِئْتُكَ فى هذه الساعةِ من الليل لتعرِفَنى ؛ إنما جئتُ لِأُعْطِيَكَ هذا الكيسَ وكفى !

فقال خُزيمةُ :

– وأَنا لن أَقبلَ هذا الكيسَ حتى تُعَرِّفَنِى بنفسِك ، وتُخبِرَنى مَنْ أَنت ؟

فقال عِكْرِمةُ :

– أَما إذا أَصررْتَ ، فأَنا جابرُ عثَرَات الكرام !

فقال خُزَيْمة :

- زِدنى معرِفةً بك !

فلم يفعل عكرِمةُ ، وتركه ومضَى عائدًا إلى بيتِه .

أَما خُزيمةُ فقد دخل على امرأَتِه ، وقال لها :

- أَبشِرى فقد أَتى اللهُ بالفرجِ والخيرِ . وإن كان ما بهذا الكيسِ نقودًا ، فهى كثيرةٌ تُعَدُّ بالآلافِ ؛ قُومى فأَشعلِى السِّراج ؛ لِنرَى ما بالكيسِ !

قالَتْ له زوجتُه :

- لا أَعرِفُ كيف أَصِلُ إلى السِّراجِ الآن ، وليس لَدَينا ثِقابٌ نُشْعِلُ بِه السِّراجَ .

فباتَ خُزيمةُ قلِقًا يتلمَّسُ الكيسَ ، ويتلمَّسُ الدراهم ، وهو لا يكادُ يُصدِّقُ أَنها دَراهمُ لكثرتِها . حتى إذا جاءَ الصباحُ ؛ وفتح الكيس ؛ فوجئ بالدراهم ، فغمَرتْه الفرحة ، وقام فقضَى دَيْنَهُ ، وسَدَّ حاجتَه ، وخرج إلى الناس .

٢

رجع عِكرِمةُ الفياضُ إلى منزِله ، فوجدَ زوجتَه قلِقةً مهمومةً ، وعلِمَ أَنها سأَلت عنه بعدَ خُروجِه ، فأَخبرَها بعضُ غِلمانِه بأَنه قد خرَجَ مُتنكِّرًا . فأَرادَ أَن يُذهبَ ما بنفسِها من قلَقٍ وَهمٍّ وشكٍّ ، فسأَلَهَا :

- ما بِكِ يا ابنةَ عَمِّى ؟

فأَجابتْهُ فى حَسرةٍ وأَسى :

- أَميرُ الجزيرةِ يخرُجُ فى مُنْتَصَفِ الليلِ متنكِّرًا دون أَن أَعلم ! ما أَراكَ قد خرَجْتَ يا عِكرِمةُ إلَّا لزوْجَةٍ أُخرى !

فابتسم عِكرِمة لِمَا سَمِعَ ، وقال لها يُطَمْئِنَها :

- يا ابنةَ العمِّ . إنكِ تعلمين مكانَتكِ فى نفسِى ، وتعلمين ما أُكنُّهُ لكِ من حُبٍّ ، وما أَدِينُ به لكِ مِنْ وفاءٍ ؛ ويَستحيلُ علَيَّ أَن أُنَغِّصَ عليكِ حياتَكِ بزوْجةٍ أُخرى .

فهدأَتْ نَفْسُها ، واقتَنعَتْ بكلامِ زوْجها ، ولكنها سأَلتْهُ مرةً أُخرى :

- فَأَخبرْنى إذنْ ما الذى خرجتَ له ، والظلامُ يَلفُّ

الكونَ برِدائِه الأَسوَدِ ؟

فأَجابها :

- إننى خرجتُ فى هذا الوقت لأَمر لا أُحِبُّ أَن يعرِفَه سِواى !

فأَصَرَّتْ على موقِفِها ، وأَلَحَّتْ فى سُؤالِها

فقال لها :

- وإذا أَخبرتكِ بالأَمر ، أَتكتُمينَه على الناس ، وعلى مرِّ الأَيام ؟

قالَتْ له :

- لكَ ذلك ؛ أَكتُمُه ولا أَتحدثُ به . عهدٌ آخذُه على نفْسى .

فأَخبَرَها عِكرِمةُ بالقصةِ ، وسردَ عليها أَمرَه مع خُزيمةَ ؛ وأَخبَرها أَنه لم يبُحْ باسْمِه صِيانةً له ، وتكريماً لرجلٍ ذَلَّ بعد عِزٍّ ، وافتَقَرَ بعد غِنًى ، وتوارى عن أَعينِ الناس .

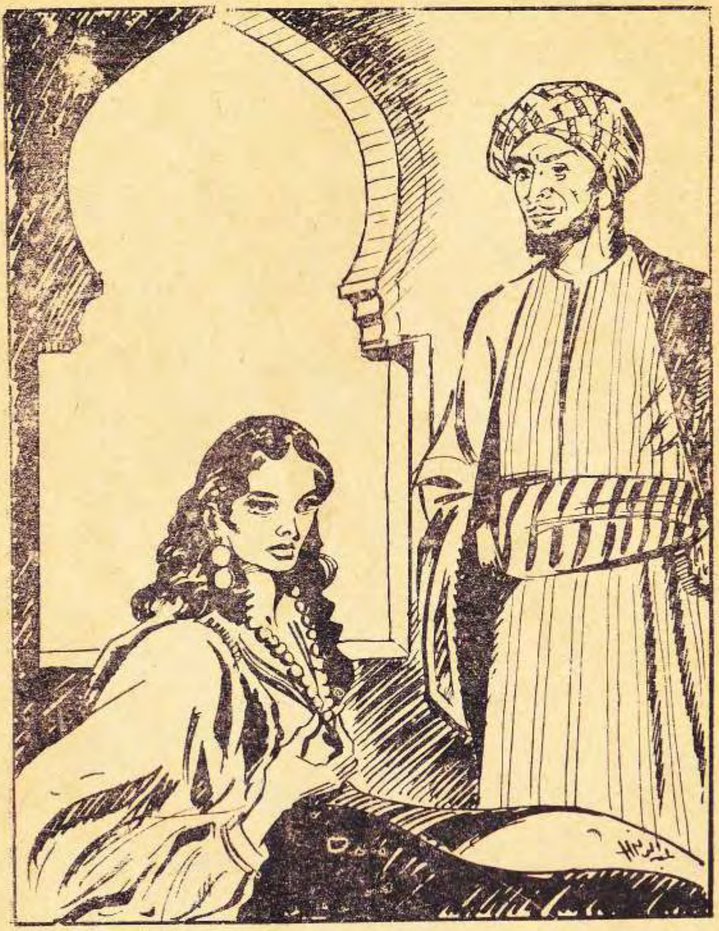

سأل عكرمه زوجته :
مابلك ياابنة عمى ؟
فأجابته :
أمير الجزيرة يخرج فى منتصف الليل متنكرا دون أن أعلم ـ
ما أراك قد خرجت إلا لزوجة أخرى .

٣

ومرَّتِ الأيامُ ، وإذا خُزيمةُ يعودُ إليه غناهُ ، وتَصلُحُ حالُه ، ويذهبُ إلى الشامِ ليُقابِلَ أميرَ المؤمنينَ « سُليمانَ بن عبدِ الملِكِ » ؛ واستَأْذن على الخليفة فأَذِن له ، وانتهى إلى مجلِسِه ، فسلَّم عليه ، فردَّ عليه السلامَ ، ثم سأَلَه :

ـ ما الذى أَخَّرَكَ عن زيارتِنا يا خُزيمةُ ؟

فأَجابه :

ـ سُوءُ الحالِ وقِلَّةُ المالِ ، وكثرةُ العِيالِ ، يا أميرَ المؤمنين ؟

فقال له :

ـ وكيف استَطَعْتَ أن تُقاوِمَ الفقرَ ، وتُسافرَ إليْنا فى هذه الأيام ؟

فقَصَّ خُزيمةُ على الخليفةِ قِصَّتَه مع جابرِ العثَراتِ .

وكان الخليفةُ يُنصِتُ فى إعجابٍ إليه ، فلما انتهى خُزيمةُ قال له :

ـ وما اسمُ ذلك الرجل الكريمِ الذى دعوْته جابرَ

العَثَرَاتِ ؟

فقال له خُزيمةُ :

ـ لم أعرِفِ اسْمه يا أميرَ المؤمنين ، فقد جاءَنى متنكِّرًا فى مُنْتَصفِ الليلِ ، وهو الذى أَمْلَى عَلَىَّ هذا اللقب ؛ وانصرفَ عنِّى دُونَ أن يزيدَ شيئًا .

فتعجَّب الخليفةُ ، ووَدَّ لو عرَفَ اسمَ ذلك الرجلِ ، وقال لِخُزَيمةَ :

ـ واللهِ لو عرفتُ اسمهُ لَكافأْتُهُ أَحسنَ المكافأَة على معروفِه وكرَمِه .

ثم قال له :

ـ قد ولَّيْتُكَ على الجزيرةِ ، وعزَلْتُ عِكْرِمَةَ عنها : فاذهَبِ الآنَ فَوْرًا ، وحاسِبْهُ على ما حَصَّلَ من أموالِ المسلمينَ ، وما أَنفقَ منها !

٤

وعادَ خُزَيمةُ إلى الجزيرةِ والِيًا عليها من قِبَلِ سُلَيمانَ أَميرِ المؤمنينَ ، وحينما علمَ عِكْرِمَةُ بنبإِ ولايةِ خُزَيمةَ على الجزيرةِ ، خرجَ فى جمْعٍ من أَهلِها يَستقبِلُهُ .

ودخل خُزَيمةُ فى موكِبٍ فخمٍ ، وقصد إلى دارِ الإمارة . ولما استَقَرَّ بها ، وتسلَّمَ مَقاليدَ الولايةِ فيها ، أمرَ بمُحاسَبَةِ عِكْرِمَةَ ، فوجد عليْهِ أموالًا عجز عن سَدادِها ، فلما كلَّمه خزيمةُ فى ذلك ، اعتذر له بأنه لا يستَطيعُ أداءَها .

فأَمرَ خُزيمةُ بأَنْ يُكبَّلَ بقُيُودِ الحديد ، ويُلْقَى فى السِّجْنِ ، حتى يُؤَدِّىَ ما عليْه مِنَ الأَموالِ . وظَلَّ عِكْرِمةُ فى السِّجْنِ شهرًا ، مُكَبَّلًا بالحديد ؛ حتى آذاهُ السِّجنُ وأَنهَكَ قُواهُ .

وبلغ الْحزْنُ بزوْجةِ عِكرِمةَ غايتَه ، ونَفِدَ صَبْرُها ، وساءَتْ حالُها ، فدَعَتْ خادِمةً لها ذاتَ عقلٍ وأَدَبٍ ، وقالَتْ لها :

- اذهبى إلى بابِ الأميرِ واستأْذنى عليْهِ ، وقولى له : عندى كَلمةٌ لك ، أُحِبُّ أَلَّا يسمَعَها غيْرُكَ ؛ فإذا خَلَوْت به

فقولى له : ما هكذا يكونُ جزاءُ جابِرِ العَثَرَاتِ !

وذهَبتِ الخادِمةُ إلى بيتِ خُزَيمةَ ، وأَبلغَتْهُ ما قالَتْ لها سيِّدَتُها ، فقال :

- واحسرتاهُ ! أَهوَ عكرِمةُ ؟ !

ثم وثَبَ من مجلِسِه وأَمرَ أَن تُسْرَجَ له الدَّابَّة فى الحالِ وبعثَ إلى عُظَماءِ الجزيرةِ فجمعَهُمْ ، وسارَ بِهمْ إلى السِّجن .

ودخل خُزيمةُ السِّجنَ هو ومن معه ، فوجد عِكرِمة أصفرَ اللونِ ، مَنهوكَ القُوَّةِ ، مُقَيَّدًا بالحديد ، فأَقبلَ عليه يُقَبِّلُ رأْسَهُ ويعتذرُ له عما كان منه .

فرفع عِكرمةُ رأْسَهُ ، ونظر إلى خُزيمةَ بعَيْنَيْنِ مَليئَتَيْنِ بالدُّموعِ ، وقال له :

- وما الذى دعاكَ إلى أَن تفعلَ كلَّ ذلك الان يا خُزيمةُ ؟

فأَجابَه :

- كرَمُ أَصلِك ، ونُبْلُ خُلُقِكَ ، وسُوءُ مُكافأَتى .

قال له عِكرِمةُ :

- يغفِرُ اللهُ لك !

وطلب خُزيمةُ الحدَّادَ ، وأَمرهُ أَن يَفُكَّ قُيود عِكرِمةَ ،

وأن يُقَيَّدَ هو بَدَله . ولمَّا سأَلَه عِكرمة عن السببِ فى أن يُقَيَّدَ ، أجابَه خُزيمةُ :

ـ أُريدُ أن يَنالَنى من الْحَبْسِ والقيْدِ مِثْلُ ما نالَكَ .

فأَقسمَ عِكرمةُ عليْه أَلَّا يفعلَ .

ثم خرج به منَ السِّجنِ ، فى مَوْكِبٍ منَ الناسِ ، حتى وصَلَا إلى دارِ خُزيمةَ . فشكرَ له عِكرمةُ ، واستأْذَنَه فى الانصِرافِ إلى بيتِه ، فقال له خُزيمة :

ـ لَنْ تذهَب إلى دارِكَ حتى تذهَبَ عنك آثارُ الحبسِ . وأُقسِمُ لك يا عِكرمةُ أن حَيائى من زوْجتِك ، لَأَشَدُّ من حيائى منك !

ثم دخل به دارَهُ ، ودعَا بأَحسنِ ثِيابِه ، فلبِسها عِكرمةُ ، ودعا بدابَّةٍ من أَعظمِ دوابِّه ، فركِبَها ، ثم ودَّعَه أَحسن وَداعٍ .

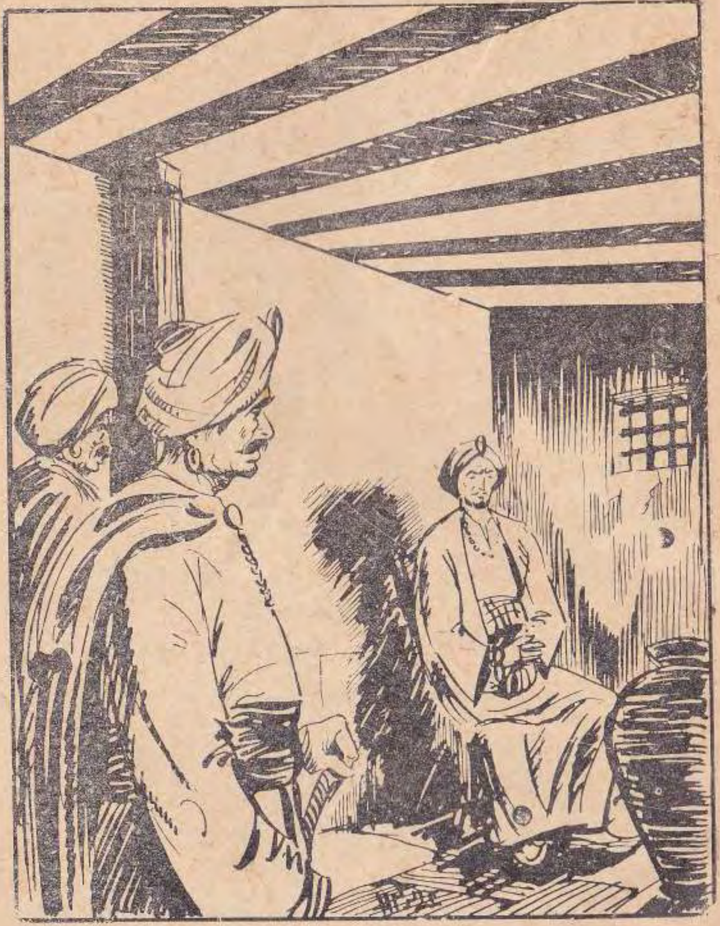

دخل خزيمة السجن هو ومن معه ، فوجد عكرمة أصفر اللون . منهوك القوة ، مقيدا بالحديد

٥

ومرَّت الأَيامُ ، وطلب خُزيمة من عكرمةَ ذاتَ يوْم أَن يذهبَ معه إلى أَمير المؤمنين سُليمانَ بالشامِ ، فوافق عكرمةُ ، فذهبَا معًا إلى الخليفة . وحينما دخل عليه خُزيمة : قال له الخليفة :

- ما وراءَك يا خُزيمة ؟

فأَجابَه وهو مُبْتَسِمٌ :

- خيْرٌ يا أَميرَ المؤمنين . لقد ظَفرْتُ بجابر العثَرات .

فقال الخليفة :

- ومَنْ هو ؟ وأَين مكانُه ؟ ولماذا لم تَصْحَبْهُ معك فنُكَافِئَه ؟

فأَجابه :

- جابرُ العثَرات هو عِكرمةُ الفياضُ ، وهو الآنَ ببابِكَ يستَأْذِنُكَ فى الدُّخولِ ؟

فسرَّ الخليفة بمقدَمه ، ورَحَّبَ به أَبلغَ ترحيب ، وقال له :

- يا عكرمة : اطلُبْ حاجاتِكَ ؛ فإِنها مَقْضِيَّةٌ جزَاءَ

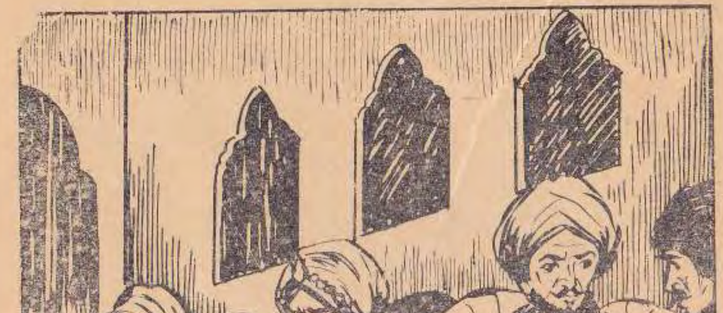

سر الخليفة بمقدم عكرمة ، ورحب به أبلغ ترحيب ، وقال له : ياعكرمة ، اطلب حاجتك فإنها مقضية جزاء كرمك الفياض .

مَوَدَّتِكَ وكرمِكَ الفيَّاض .

فقال له عِكرمة :

ـ أَعْفِنى من ذلك يا أَميرَ المؤمنين .

فأَقسمَ عليه الخليفة أن يفعل .

فقال :

ـ الأَمرُ فى ذلك موكولٌ إلى أَميرِ المؤمنين .

فقال له الخليفة :

ـ قُمْ فاكتُبْ جميعَ حاجاتِكَ .

ثم أمر له بعشرةِ آلافِ دينارٍ ، وولَّاهُ الجزيرةَ ، وأَرمينيَّةَ ، وأَذْرَبيجانَ ، وقال له :

ـ أَمرُ خُزيمة إليْكَ ، إن شِئْتَ فاعزِلْه ، وإن شِئْتَ فاترُكْهُ من قِبَلِكَ والِيًا على الجزيرة .

فأَجابه عِكرمة :

ـ بل هو يا أَمير المؤمنينَ فى عملِه ، خَيْرُ والٍ وأَمير .

ثم انصرفَ خُزيمة وعِكرمة من عِنْدِ الخليفة ، عزيزيْنِ كريميْنِ ، وصديقيْن حَميمَيْنِ ، وظَلَّا طولَ خلافتِه عاملَيْنِ له ، مُخْلصيْنِ فى طاعتِه .

قوس حاجب

١

عاشَتْ قَبيلةُ تَميمٍ فى جزيرةِ العربِ عِيشَةً هَنيئةً ، ينهَض فِتْيانُها مِن نوْمِهم فى الصَّباحِ الباكِر ؛ فيَسُوقونَ أَغنامَهم وإبلَهُمْ إلى الأَعشابِ الخضراءِ التى كانتْ تَنْبُتُ على مَقْرَبَةٍ من ديارِهم ، فترْعاها ؛ فإذا غابَتِ الشمسُ عادَ الفِتْيانُ بماشيتهم ، وقدِ امتلأَتْ بطونُها ، وتدلَّتْ ضُروعُها ، وإذا تقدَّم الليلُ اجتمعَ الفِتيانُ بالشُّيُوخِ فى حلقات ، يَسْمَرُونَ ويتحدَّثونَ ويُغنُّون ويطْرَبونَ .

وظَلَّتْ حالُ بنى تميمٍ على ذلك حِقْبَةً طويلةً مِنَ الزمنِ ، ينزِلُ المطرُ ببلادِهمْ ، فتخضرُّ الأَرضُ ، وتنمو الأَعشابُ ، وترعَى الماشيةُ ، ويكثُرُ الرِّزقُ ، وتعُمُّ السعادةُ .

ثم حدثَ ذاتَ عامٍ ما لم يكنْ فى الحسبان ؛ امتَنعَ المطرُ ، وتخلَّفَ عن مَوْعِدِه ، فأَجدَبَتِ الأَرضُ ، وهَلَكتِ الماشيةُ ، وخَلَتِ البيوتُ منَ الطعامِ ، وجاعتِ البُطون ، وانفَضَّتْ مجالسُ السَّمرِ ، وحلَقاتُ الطَّربِ ، وأَصاب بنى تميمٍ غمٌّ شديدٌ ، وشَقاءٌ مريرٌ .

وكان حاجبُ بْنُ زُرارةَ ، سَيِّدُ بنى تميمٍ ورئيسُهم يرى كلَّ ذلك ، فيتَقطَّعُ قلبُه من الأَلَمِ ، وتتمزّقُ أَحشاؤه من الْحزْن .

وكان يَخرجُ كلَّ ليلةٍ إلى العَراءِ ، فيجلِسُ وحيدًا ، يُفكِّرُ فيما أَصابَ قومَه ، ولا يعودُ إلى بيتِه إلَّا إذا تقدَّمَ اللَّيلُ ، وغاب القمرُ ، كأَنَّهُ لا يُرِيدُ أن يُشَاهِدَ ما يُعانيه قوْمُه من آلامٍ .

ثم فكَّرَ حاجبٌ طويلًا فى طريقةٍ يُنقذُ بها قومَه من الهلاك ؛ لأَنه كان يشعُرُ فى قرارةِ نفسِه أنه مسئُولٌ عنهم ، فهو سيِّدُهم ورئيسُهم ، وصاحبُ الكلمة فيهم ، وطالما حلَّ مُشْكلاتهِم ، وفضَّ مُنازَعاتهِم ، وجلَب لهم بآرائه السَّديدةِ الخيرَ والرَّخاءَ .

وخرج ليلةً إلى العَراءِ كعادته ، وهنالكَ أَسندَ ظهرَه إلى صَخْرةٍ مَلْساءَ ، وراح يفكِّرُ ويُفكِّرُ . وكان القمرُ ساطعًا يكسُو الصَّحْراءَ بثَوبٍ رَقيقٍ من الضِّياءِ الفِضِّى ، كما كان الجوُّ لطيفًا ، والنَّسِيمُ يَهُبُّ عَليلًا مُنْعِشًا ، ولكِنَّ حاجبًا لم يكن يشعُرُ بشيءٍ من ذلك ، فقد كان مَهْمُومًا بما حلَّ بقومِه

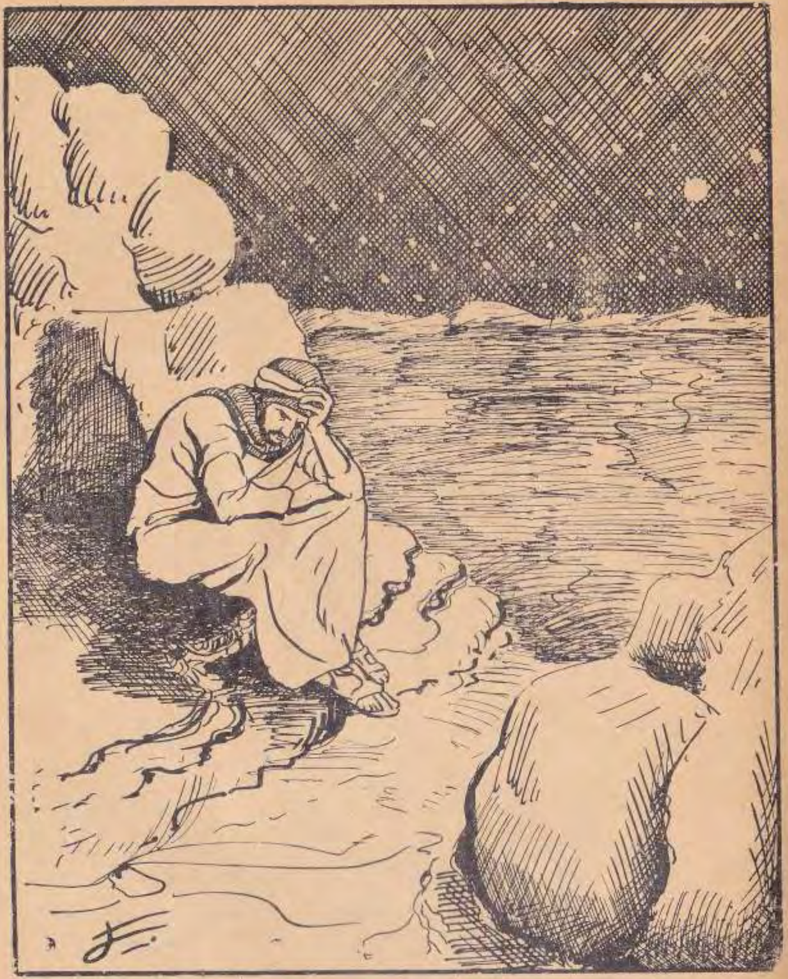

وخرج حاجب إلى العراء كعادته وهناك أسند ظهره إلى صخرة ملساء ، وراح يفكر فيما حل بقومه

من شَقاءٍ وعَناء .

وأَخيرًا رأى وهو يفكِّرُ أَنه يجبُ أَن يرحل بقومِه عن ديارهم ، إلى ديارٍ أُخرَى خَصيبة ، فيها حياةٌ لهم ، وعِوَضٌ عن دِيارهم ، ولكنه تذكَّرَ أَنَّ فِرَاقَ الوطنِ صَعْبٌ شديدٌ على النفسِ ، وأنه لا يُطيقُ هُوَ ، ولَنْ يُطِيقَ قومُهُ أن يَتركوا ديارهم التى عاشوا فيها وعاشَ آباؤُهم وأَجدَادُهم ، ودُفِنَ فى ثَراها مَنْ ماتَ منهم .

ثم أَخذَ يُوازِنُ بين الرَّحيلِ إلى مكانٍ خصيبٍ ، وبين الموْتِ من الجوعِ على أَرضِ الوطنِ الحبيبِ ، وأَخيراً فضَّلَ الحياةَ على الموتِ ، ونوَى الرِّحلةَ على كُرْهٍ منه .

ولكنْ إلى أَين يرحَلُ بنو تَميم ؟

مُشكلةٌ أُخرى عرضَتْ لحاجبٍ ، ولكنه سَرعانَ ما وجد لها حلاً ، فلم يرَ مكانًا لقوْمِه أَحسنَ من ريف العراق ؛ حيثُ التُّرْبةُ الخصيبةُ ، والماءُ الغزيرُ ، والخيْرُ الكثيرُ .

ووجدَ حاجبٌ أنه لا بُدَّ من أن يستأْذِنَ كِسْرَى ملِكَ الفُرْس ، وصاحبَ الأَمرِ في العراقِ ، في أن يتخذ بنو تميمٍ من ريفِ العراق مكانًا يُقيمونَ فيه ، ويعيشون . وكان

هذا الاستئذانُ مَيْسورًا له ، سهْلًا عليْه ، فهوَ يعرِفُ كسرى مَعرِفةً أَكيدةً ، وكثيرًا ما وفد عليه من قبلُ ، فأَكرمَ وِفادتَه ، وتعرّفَ على حاشِيتِه ، من عَرَبٍ وفُرْسٍ . وهو فوقَ ذلك سيَطلُبُ من النُّعمانِ بنِ المنذرِ ، ملكِ الحيرة أن يتوسّطَ لدي كِسرَى فى ذلك .

واختَمَرَتِ الفكرةُ كلها فى رأسِ حاجبٍ ، وهو جالِسٌ إلى الصخْرةِ الملساءِ ، واتَّضحَتْ له معالمُها ، فنهض من مجلسِه ، وعاد إلى الحيِّ ، ونام على استِعداد .

فلما أَشرقَتِ الشمسُ هبَّ من فِراشِه نَشيطًا خفيفًا ، ومَشَى إلى رُؤَساءِ قوْمِه ، فجمعَهُمْ وأَخبرهم بما اعتزم عليه ، فنظر بعضُهم إلى بعضٍ نظراتٍ كلُّها حُزْنٌ وأَسًى على فِراقِ وطنِهمُ الحبيبِ . وفهِم حاجبٌ من نَظراتِهمْ ما يُريدون ، فلم يُمهلْهم ، ولم يتركْ لهم فُرصةً للكلامِ ، وإنما حبَّبَ إليهمُ الرحيلَ ، وأَخبرهم أَنه سيذهبُ من فوْرِه إلى النُّعمان بن المُنْذِرِ ، ملكِ الحيرةِ ، ليُوسِّطَه لدَى كسْرى ملك الفُرْس . فوافقَ القومُ على رأيه ، ورَجَوْا له فى رحلتِه التَّوفيقَ والنَّجاح .

* * *

وما هى إلا ساعةٌ من نهارٍ حتى كان حاجبٌ فى طريقه إلى النُّعمانِ ، ومعه جماعةٌ من شُيوخِ بنى تميمٍ ، فلمَّا وصلوا إليه أكرمَ مَقْدَمهم ، وسألهم عن سببِ رحيلهم ، فتكلَّمَ حاجبٌ ، وشكا للنُّعمانِ ما أصاب قومَه من قحطٍ وجوعٍ ، وكان حاجبٌ فصيحَ اللِّسانِ بليغًا ، فوصفَ للملِكِ حال قومه وصفًا مؤثِّرا . وكان النُّعمان يستمعُ إليه فى إصغاءٍ واهتمامٍ . فلما انتهى من شكواهُ طلبَ منه أن يتوسَّطَ له لدى كِسرَى . فلبَّى طلَبه ، وأعطاهُ كتابًا إليه يُوصِّيه فيه ببنى تميمٍ خيرًا ، ويودُّ منه أن يُحقِّق رغبةَ رئيسِهم حاجبٍ فى أنْ يُقيمَ هو وقومُه فى ريفِ العراقِ .

وأخذ حاجبٌ كتابَ النُّعمانِ ، وشكرهُ على صنيعه ، وتوجَّه بمنْ معَهُ إلى بلادِ فارِسَ ، بعد أنِ استراحَ عندَ النُّعمانِ من متاعبِ الطَّريق .

ولَمَّا وصَل إلى كِسرَى اسْتَقبلَه استقبالًا حافلًا ، وأكرمه ومَنْ معهُ غايةَ الإكرامِ . ثمَّ عرضَ عليه حاجبٌ ما أصاب قومَه ، بكلامٍ فصيحٍ بليغٍ ، واستأْذَنَه فى أن ينتقلَ بنو تَميمٍ إلى ريفِ العراقِ ، وسلَّمهُ كتابَ النُّعمانِ .

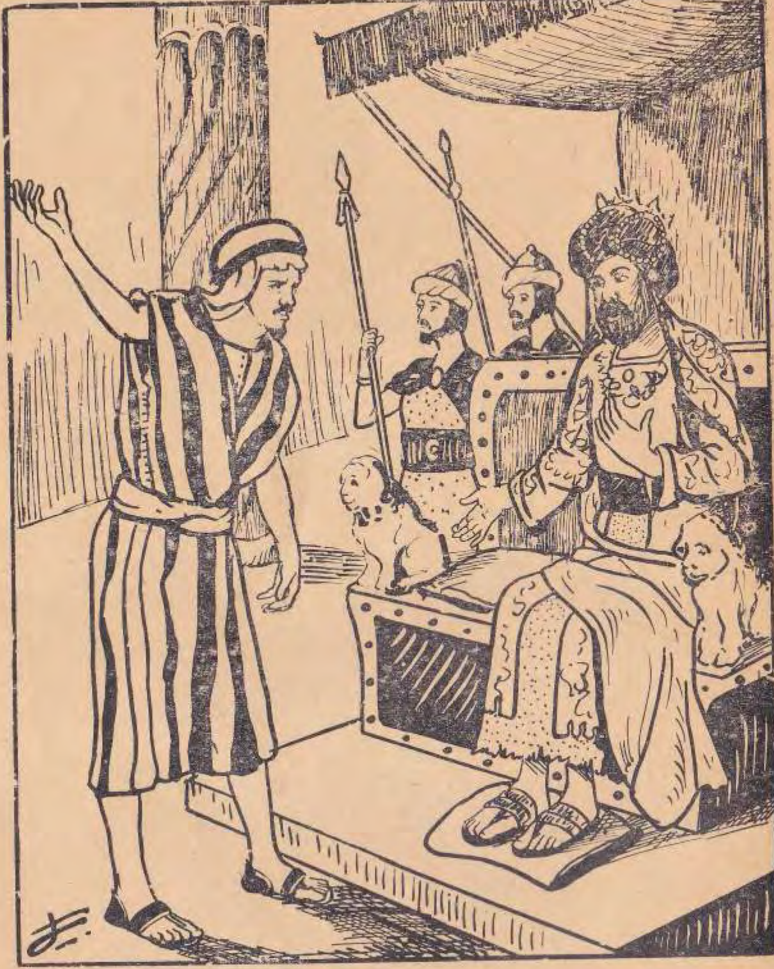

وصل حاجب إلى كسرى ، فاستقبله استقبالا حافلا
وعرض عليه حاجب ما أصاب قومه بكلام فصيح بليغ ،
واستأذنه فى أن ينتقل بنو تميم إلى ريف العراق .

فلما قرأ كِسْرَى الكتابَ ، وسمع شكوى حاجبٍ أطرقَ برأْسه يفكِّرُ ، ثم رفعَ رأْسَه ، وقال لحاجب :

ـ إنكُمْ ـ معشرَ العربِ ـ تحبُّون الحروبَ والغارات ، فإذا أنا أذنْتُ لكُم أفسدْتُمُ الرِّيفَ ، وآذَيتُم الرعيَّةَ بالعِراق .

فقال له حاجبٌ :

ـ أيُّها الملك . إنِّى أضمنُ لك أنْ يعيشَ قَوْمى فى سلامٍ مع أهْلِ العراقِ ، وألَّا يُحدثوا شيئًا مما ذكرْتَ .

قال كسرى :

ـ ومَنْ يَضْمَنُ لى أنْ تفىَ بوعدك ، وأنْ يفىَ قومُكَ بما تطلُبُ منهم ؟

فأجابه حاجبٌ إجابةَ الواثقِ مِن نفْسه ومِنْ قوْمه :

ـ أمَّا قوْمى فإنَّهمْ لا يعصُونَنى أبدًا ، وهمْ فى طاعتى ما حَيِيتُ ، وأمَّا أنا فإنِّى أُقدِّمُ لكَ قوسى هذه رَهْنًا عندك ، ووفاءً بما ضمِنتُ لكَ .

فلما سمعَ بِطانةُ كِسرى هذا الكلامَ من حاجبٍ ، ورأوْا قوسَهُ وهو يقدِّمُها للملِكِ ، نظرَ بعضُهم إلى بعضٍ ، وأخذوا يتغامزونَ ، ويتهامسونَ ، ففهِمَ كسرَى من نظراتهم ،

ومَلامحِ وجوهِهم ، أنهم يحتقِرونَ القوسَ ويَعْجَبُونَ أن تكونَ رَهْنًا فى عمَلٍ عظيمٍ كهذا ، وأنهم يَسْخَرُونَ من حاجب ، فقال لهم :

ـ لا تَظنُّوا أنَّ حاجبًا يَرْهَنُ قوْسَهُ ، وهو يُرِيدُ أن ينقُضَ عهده ؛ فإنَّ تلكَ القَوسَ رَمْزُ شَرفِهِ ، ومصدرُ عزَّته وكرامَتِه .

وأمر أن تُؤخذَ القوسُ من حاجبٍ ؛ رهْنًا بما وعَد ، ثم قال له :

ـ لقد أذِنْتُ لقومكَ أن يقْدَمُوا إلى ريفِ العِراقِ ، وأرجو أن يَعيشوا مع أهلِه فى سَلامٍ .

فشكرَ حاجبٌ لكسرَى ، ونهَض من مَجْلِسه وانصرفَ عائدًا إلى قومه .

٢

عادَ حاجبٌ إلى قَوْمِه ، يَحمِلُ لهمُ البُشْرَى فرْحانَ مُبتهجًا ؛ فلما دنا من ديارِهمْ ، هو ومَنْ معه من الزُّعماءِ ، أسرعَ الفتْيانُ والرِّجالُ والأَطفالُ لِاستقبالِهم ، وأحاطُوا بِهم كما يُحيطُ الناسُ بقائدٍ عادَ مُنتصِرًا .

ولما اطمأَنَّ المُقامُ بحاجبٍ أَخبر قومَه بمُوافَقةِ كِسْرى ، وأَمرهُمْ أن يَستعدُّوا للرَّحيل ، فقَضَوْا بِضْعَةَ أيامٍ يَحْزُمُونَ أَمتِعتَهمْ ، ويَجمَعُونَ ما أَبقَى القَحطُ لهم .

ثم غادَروا الوطنَ الحبيبَ رُكبانًا ومُشاةً ، ومَضَوْا فى طريقهم وهم يتلَفَّتون إلى الوراءِ . ويختَلسون النظرات إلى ديارِهم ، وينظُرونَ ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشِّمالِ ، والدُّموعُ تكادُ تَطْفُرُ من عُيونِهم .

وأَخيرًا استقرَّ بهمُ المُقامُ فى العراقِ . وعاشوا مع أَهْلِه فى سلامٍ ومَحبَّةٍ ، ووَفَوْا بما عاهدَ كِسْرى عليْه زَعيمُهم حاجبٌ ، وقَضَوْا هناكَ بِضْعَ سنوات فى رَخاءٍ منَ العَيْشِ ، وسَعَة من الرِّزْقِ .

* * *

ثم مَضَتْ أَعوامٌ ماتَ بعدَها حاجبٌ فبكَوْهُ أَحرَّ البكاءِ وصاروُا يُقْسِمونَ به على الأَمْرِ العظيمِ الذى لا يُغْنِى فيه إلَّا القَسَمُ العظيمُ ، والْتَفُّوا حوْلَ ابنِه « عُطارِدُ » ، واتَّخذوهُ زعيمًا لهم بعد أَبيه ، فوجدوه رجلًا عظيمًا ، ورث عن أَبيهِ خيرَ الخِصالِ وأَشْرَفَها .

وبعدَ سنةٍ من موْتِ حاجبٍ ، جاءَتْهمُ الأَخبارُ أَنَّ ديارهُم قد أَخصبَتْ واخضرَّتْ أَعشابُها ، وعادتْ إليْها الحياةُ ؛ فأَسرعوا إليْها خفافًا . وهُناك وجدوا أَرضَهُم ، وقد اكتسَتْ ثِيابًا خُضْرًا من العُشْبِ والحشيشِ ، ووجدوا الأَشجارَ الجافَّةَ قد أَوْرقتْ ، وطالتْ فُروعُها ، ووجدوا الغُدران رجعَتْ إليها مياهُها ، فعادتْ إليهمُ الأَفراحُ ، ورجعوا إلى حلَقاتِهم يُنْشِدونَ الأَشعار ، وترتفِعُ أَصواتُهم بالغناءِ .

* * *

ومَضتْ أَيَّامٌ . ورأَى عُطارِدُ بنُ حاجبٍ أَن يذهبَ إلى كِسرَى ، ليستردَّ قَوسَ أَبيه ، بعد أَن وَفَى بالشرطِ ، وصدَقَ قومُه فى اليمينِ ، ولما دخلَ على كسرى وطلبَ منه القَوْسَ ، قال له :

– يا بُنَىَّ ؛ لستَ أنتَ الذى رهنَ القوسَ عندى حتى أُسلِّمها لك .

فأَجابه عُطاردُ – وكان فصيحًا كأَبيه :

– نعمْ أَيُّها الملِكُ ، هو ما ذكرْتَ ، ولكنَّ أَبى الذى رهَنها عِندكَ قد ماتَ ، فورِثْتُها عنه فيما ورِثْتُ من مالٍ ؛ وإنِّى أُقسِمُ لك بأَبى ، أَنَّ هذه القَوْسَ – فى رأْيِى – أَعظمُ ميراثٍ خلَّفه لى ، وما كان لك أن تحْجُزَها عنِّى ، وقد أَصبحتُ صاحبَها .

فعَجبَ كِسرى من كلامِ عُطاردَ ، وقال له :

– لقد وفَى أَبوكَ بما وعَدَ ، وقام قومُكَ بما ضمِنُوا ، ولقد كان أَبوكَ رجلًا وفيًّا حقًّا ، وعظيمًا حقًّا ، ولقدْ حزنْتُ على موْتِه حُزْنًا شديدًا .

فقال له عُطاردُ :

– شُكرًا أَيُّها الملكُ ، ودام لكَ الخيرُ والإسعادُ .

فقال كسرى لبِطانَتِه :

– رُدُّوا عليْه قوسَ أَبيه ، وأَعطوه مِنَ العطايا ما يُرْضِيه .

فلما تسلَّم عُطارِدُ القوسَ ، وأَخذَ العطايا قال :

– أَشكُرُ للملِكِ ثلاثًا : أَنه أَنقذَ قومى مِنَ المجاعةِ ، وأَنه ردَّ علىَّ قوسَ أَبى ، وأَنه أَعطانى هذه العَطايا الثمينة .

فقال له كسرى :

– لقد كان أَبوك يا عُطاردُ عظيمًا حقًّا .

فقال له عُطارِدُ ، وهو ينصرِفُ من مَجْلِسِه :

– وكانَتْ قَوْسُهُ أَيضًا قَوْسًا عظيمةً ، أَوْدعَها عندَ ملِكٍ عظيمٍ .